

دستور المملكة المغربية (1803) قراءة في تقاطعات الثقافي والسياسي

* شعيب حليفي

إن قدرة اللغة غير محدودة في اكتساح المزيد من مساحات جديدة، تنمو عليها دلالاتها وعبرها تُخفي ما تستطيع أن تخفيه، فتكتسب مع الزمن والممارسة المناعة والحيلة مما يمنحها أشكالاً متجددة من "اللعب" والتنويع فيه، اخل عالم الكتابة، وفي صيرورة دائمة، سواء من خلال أنماط القول الكلاسيكية أو المُحدثة.

في هذه الورقة، سأعرض لورود تيمة واحدة ذات تشعبات مُعقدة في ثلاثة أشكال تعبيرية، يتقاطع فيها التخيلي بالتسجيلي ضمن دائرة تشابك الثقافي بالسياسي، الحقيقي بالزائف، الظاهر بالباطن، المعلن بالخفي ... فكرة أول دستور تمت كتابته للمملكة المغربية في عهد المولى سليمان من طرف رحالة إسباني متكرر ضمن فهم ثقافي وتاريخي فاعل في ما يتشكل من أفكار وأفعال. دستور من مشاريع أفكار شخصية ومؤسسية بلورها رحالة يمتلك مقدرة إبداعية توازي قدرته على التكرر في شخصية عربية، يحمل فكرة تُصبح حُلماً يسير ويحيا بجوار واقع، وهما معا متناقضان يتصارعان، كل واحد ينتصر

على الآخر بأسلوبه الذي يُجيده، الواقع الذي يتحول إلى أحداث أبطالها لهم مقدراتهم وخططهم، فيما يتحول الحلم إلى كتابة.

القناع والحلم

كل من سيقراً سيرته المشتتة، هنا وهناك، أو يطالعُ نصوصه ورسائله التي كتبها بحس الروائي ومراوغات المسرحي، سيُخامرهُ إحساس غريب وملتبس تُجاه شخصية علي باي(1)، شعور بأنه "بطل" معجون بماء القدر المتقلب وروح المغامرة فيبدو كما لو أنه خرج من بطن الخيال!.

لا أحد يختلف أنّ علي باي الذي دبرَ لنفسه "تاريخاً جديداً" دسّ فيه الحقيقة ضمن إبرام الخيال بواقع جديد من قناع يصعب تمييزه، اعتبره في البداية حياةً موازية تسمى مغامرة على حافة خطر واقعي . بهذه الصفة سيدخل إلى العالم العربي الإسلامي من بوابة المغرب، ودون أن يدري ستُصبح الحياة المُقنّعة وقد اختارها لرحلة مجهولة هي حياته الحقيقية التي كان يخطط لها ويحلم بتنفيذ خططها، تُحرّك طموحات شخصية وعامة .

إنه ضومنيكو باديا الإسباني المزداد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وسط صخبٍ سيمتدُ طويلاً، تسربت بعض ظلاله إلى نفسه فاخترار الخروج عن المألوف والارتحال إلى المجهول في رحلة اعتبرت "تجسسية" استطاع أن يُحولها إلى تجربة ثقافية يتقاطع فيها السياسي بالاقتصادي بالوهمي لصالح دولتين كبيرتين، إسبانيا أولاً ثم فرنسا؛ ووحده كان يُدرك أنه يعمل لصالح خيالاته، حتى أن المؤرخين سيحتارون في تصنيفه: هل هو جاسوس أخطأ الوسيلة بعدما فاضت أحلامه عن الحد المنسوب المسموح به لمهمة واقعية جداً؟ أم مُغامر تشبع بأحلام الغزو الأوربي وطموحات الذات بما تمتلكه من معارف ورغبات؟ أم هي لعبة أديب متعدد المواهب، رحالة يُحبُّ الاكتشاف و كاتب يهوى اللعب بالبيضة والحجر، بالواقع والخيال... يعشق تركيب البسيط داخل المعقد ، واليقين خارج المحتمل والكذب بمراوغات الصدق

الموارب ! (2) سيرة مُتشابكة ذات وجهين: وجه "بحقائق" يلاعبُ بها أشخاصا "آمنوا" بمقدرته في الاندساس داخل عوالم مغلقة ومُغايرة، أغراهم بفكرة تطويع الآخر لاحتوائه؛ ووجه من أقنعتَه التتكرية (3) في حياته بالمغرب وباقي دول العالم العربي الإسلامي.

منذ طفولته بدأ ضومنيكو باديا يستأنسُ بالعالم الإسلامي عبر علاقته بالتجار المسلمين رُفقة والده الضون بيدرو باديا كاستيو، هذا الأخير الذي تقلد وظائف متعددة، منها سكرتير حاكم برشلونة ثم سكرتير جنرال مالقة، وأخيرا راويا لأخبار الحرب ونائب أمين صندوق الحزب العسكري لمدينة البيرا من إقليم المرية. في الرابعة عشرة من عمره، تم تعيينه متصرفا بالإدارة المالية على ميناء غرناطة؛ وبعد خمس سنوات سيخلف والده في وظيفته إلى جانب مواصلته لدراسته بالمدارس الملكية للفيزياء والكيمياء. وبعد زواجه، الذي أثمرَ بيدرو وماريا، جرى تعيينه متصرفا للمداخل الملكية من التبغ متمما دراساته وتأملاته، خصوصا وهو بقرطبة التي تختزن آثار الحضارة الإسلامية .

في هذه الفترة، تحول باديا إلى اختبار تجارب فيزيائية وعلمية حول الضغط الجوي من خلال المنطاد، والتي لقيت فشلا خسر إثره كل ما اقترضه من أموال، الأمر الذي سيدفعه إلى مغادرة قرطبة نحو مدريد مُخلفا وراءه زوجته وابنيه بفييرا، وهناك التحق بمنصب سكرتير مكلف بمكتبة الضون بابلو، أمير منطقة كاستيل فرانكو سنة 1799؛ وفي السنة الموالية ترجم من الفرنسية "معجم عجائب الطبيعة" لجوزيف اكنون سيكو (4)، كما كان مولعا وفي أوقات فراغه بالبحث داخل المكتبات، عن جديد الكتاب الفرنسيين والانجليز حول استكشافاتهم بإفريقيا، وهي الشرارة التي ألهمت حماسه ليحرر مذكرة تتضمن خطة متكاملة عنونها "الطريق إلى إفريقيا"، قدمها في الثامن من أبريل 1801 إلى رئيس الوزراء الاسباني مانويل كُثوي (5)، مضمونها انتحال باديا لشخصية عربية والسفر عبر المغرب نحو زنجبار وكينيا وايشوبيا وليبيا لخلق تحالفات سياسية

واقتصادية مع اسبانيا، وهو الأمر الذي أغرى كُثُوِي، لثقته في قدرة صومنيكو باديا - كما سيعبر عن ذلك في مذكراته سنة 1836- بسبب تدهور العلاقات بين اسبانيا والمغرب وتوقف المعاملات التجارية في عهد السلطان المغربي المولى سليمان؛ كما فكر مانويل كُثُوِي في أن وجود باديا بالمغرب سيُمكنه من الالتقاء بكل المتمردين ضد سلطان المغرب ومساعدتهم عسكريا على تنحيته. لكن قرار الاكاديمية الملكية للتاريخ، الموكل إليها دراسة مثل هذه المشاريع، لم يكن في صالح باديا، فقد أبدت مجموعة من الملاحظات الوجيهة، منها كونه لا يُتقن اللغة العربية ولم يقرر رفيقا له في رحلته .

لم ييأس باديا بعد ما علم أن الملك كارلوس الرابع ومانويل كُثُوِي متحسان للمشروع، فانتظر إلى حين حصوله على الموافقة وتقرر سفره بصحبة سيمون دي روخاس، الذي يعرف اللغة العربية وله دكتوراه في اللاهوت من مقاطعة بلنسية(6). وهكذا خرج من مدريد في ثاني عشر ماي 1802، نحو باريس ليلتقي بالعالم الفلكي جوزيف دو لالاند وعالم الطبيعة جون لامارك وغيرهما حيث حصل على معلومات جغرافية وبحرية. وفي غشت من نفس السنة توجه إلى لندن، وهناك التقى بعدد من العلماء وتعرف على الآليات التي سيسعملها في رحلته، واغتتم الفرصة فأخضع نفسه لعملية ختان لدى طبيب يهودي، تاركا لحيته ومرتديا اللباس العربي .

في قادس، التي وصلها باديا وصديقه روخاس، على باخرة من لندن استقر رأيهما على أن يختار باديا اسم علي باي بن عبد الله؛ فيما سيحمل روخاس اسم محمد بن علي ، هذا الأخير الذي لم يكن متحمسا أو مقتنعا وربما خائفا، فتخلف تاركا باديا يسافر لوحده إلا من قناعه الجديد نحو طنجة يوم 29 يونيو 1803، وهناك قدم نفسه للمجتمع الطنجي على أنه ابن أمير سوري ثري خرج من بلاده لأسباب سياسية، فعاش ودرس بايطاليا وانجلترا؛ وقال لهم بأنه جاء للتعلم في دين آبائه .

وقد أظهر، منذ البداية، الورع والتقوى بالمداومة على الصلاة وتوزيع الصدقات على فقراء المدينة؛ فذاعت شهرته، خصوصا حينما تنبأ بالكسوف في الخامس عشر من فبراير 1804، وتوثقت علاقته بكبار المسؤولين السياسيين والدينيين بطنجة؛ ولأنه لم يكن يجيد اللغة العربية فقد استعان بيهوديين لخدمته في التواصل والترجمة.

الخيال المُقْتَع

بهذا القناع والخيال وخططه المرسومة أو المستجدة، سيلتقي بالسلطان المغربي المولى سليمان (7) إثر قدومه طنجة لتسوية أمرطاري، مقدما له هدايا سخية، لينتقل بعد ذلك إلى فاس بدعوة منه، ثم مراکش برفقته دائما، وهناك سيهديه السلطان قصر السملالية، والذي وصفه علي باي بدقة متناهية في ما دونه عن رحلته إلى المغرب ابتداء من الفصل السادس (8).

بقي علي باي على اتصال بمانويل كدوي، يوهمه بأن النصر قريب على مرمى نظر، فقريبا سيلجأ السلطان إلى طلب العون من إسبانيا لإخماد ما سيأتي من ثورات. وإذا ما فشل هذا السيناريو فسيعمل على التنسيق مع متمردي قبائل جبال الأطلس وغيرهم للإطاحة بالسلطان، ويُبايع (علي باي) سلطانا على الإمبراطورية المغربية.

لكن تحولا جديدا سيظهر في مسار حياته التكرية خلال دسمبر 1804، إثر المواجهة بين إسبانيا وإنجلترا، جعلت الملك كارلوس الرابع، يدعو باديا إلى تطبيق مخططه بغزو المغرب؛ غير أن علي باي اكتشف أنه لم يعد قادرا على لعب نفس الدور، فالتمردون لا يتقون به كما أن شكوك عدد من المحيطين بالسلطان بدأت تساورهم.

وكان علي باي قد شرع في إقناع السلطان بتبني دستور يُقنن تولى الحكم ويضمن للمغاربة الملكية الفردية؛ وفي هذه الفترة تزوج من أم هاني - والتي ستضع له ابنا، بعد رحيله، حمل اسم عثمان - وتأكد أن السلطان غير مقتنع

بأي تعديل على حكمه وأن عداوته لإسبانيا ثابتة، فتسارعت الأحداث وحاول التنسيق مع مولاي العربي الدرقاوي لتنفيذ الثورة، لكن محاولته فشلت وأحس السلطان بأن علي باي متورط بشكل من الأشكال فأمره بالخروج فوراً من المغرب.

وقد أشار علي باي لفكرة إثارة مسألة تبني الدستور وأشكال تلقي ذلك في نص المسرحية، سواء من لدن السلطان أو محيطه. ومما ورد على لسان من اعتبرهما عدوين لمشروعه وهما عبد المالك ومحمد السلاوي (المشهد الخامس من الفصل الأول):

[عبد الملك (مُخاطبا السلطان المولى سليمان) : بالرغم من ذلك، فإن فكرة إعطاء رعاياك ضمانات بالحرية و الملكية الخاصة ومنحهم التمثيلية على مستوى الوطن تخيفني و تجعلني ارتعش .

♦ السلاوي: في رأيي أن كل تجديد يُعتبر خطيرا و خصوصا عندما يتعلق الأمر بالتخفيف من خضوع أناس غير قادرين على تقنين حقوقهم وواجباتهم. ثقب بي سيدي أن الله الذي أعطاكم عرش الغرب فلكي تتعموا بالراحة دون أن تقلقوا على مصير الستة ملايين من الخلق الذين قدر لهم أن يكونوا في خدمتكم و لتلبية رغباتكم.

وأنا بدوري أعترف وأشهد أنه حتى البذلة التي أرتديها ليست لي. الكل ملك للسلطان. إننا لم نجدد هذه المؤسسة القوية والموجودة منذ عدة قرون].

وفي المشهد الخامس من الفصل الثاني، يرد السلطان على اقتراح علي باي بما يلي:

♦ السلطان: هذا صحيح، يا علي باي، لكنني مرتاح لوضعيتي، فلماذا علي أن أقوم بالتجديد الذي يمكن أن يشكل خطرا ؟

وهو نفس المعنى الذي سينقله المولى عبد السلام عن أخيه السلطان في حوار له مع علي باي (المشهد السابع من الفصل الرابع):

عبد السلام: أه، يا صديقي العزيز ! إن الله لن يستجيب لدعائنا. لقد صار قلب سليمان متحجرا بسبب نصائح عبد المالك الشاذة فقاوم كل حججي وأعلن بصفة نهائية أنه لا يريد وضع دستور.

♦ علي باي: هل هذا صحيح؟

♦ عبد السلام: للأسف، إنه صحيح جدا.

♦ علي باي: لكن ما هي الأسباب التي اعتمد عليها لكي يرفض؟.

♦ عبد السلام: لقد رأى الخطورة في كل جديد. كما أنه غير مقتنع بجدوى الدستور خاصة إذا ما كان والده سيدي محمد وجده مولاي عبد الله ؛ وهما من أكبر السلاطين ، لم يضعوا دستورا للبلاد.

♦ علي باي: ما أتعس هؤلاء الأمراء ! وما أتعس هذه الأمة...!

♦ عبد السلام: إنني أعرف جيدا أسباب مقاومة سليمان؟ فهو لا يريد التخلي عن سلطته الجائرة التي يستمتع بها ولهذا، فإن وضع قانون مكتوب ومؤسسات للدولة تسهر على حمايته هو في الواقع أمر يرهبه.

♦ علي باي: وهل يعقل أن يميل قلب سليمان إلى التلذذ بلحظة عوض الاطمئنان على مصير عائلته وسعادة شعبه؟.

وفي المشهد الثالث من الفصل الخامس والأخير سيصرح السلطان ، المولى

سليمان بآخر ما عنده في هذا الموضوع أما علي باي والمولى عبد السلام :

♦ عبد السلام: لا يا سليمان، لا تستخف بنصائح علي باي. هو يكلمك بصراحة قلبه ويمكن القول إن الله هو الذي جاء به إلى أرضنا كي ينبهنا لما فيه خير لهذه الأمة.

♦ سليمان: (بتردد) ليت كان ممكنا... لكن لا... علَّه كان بمقدوري التوفيق...

لا، هذا غير ممكن. (بحزم) لا تكلموني بهذا الشأن مرة أخرى.

بعد صدور قرار الترحيل من ميناء العرائش، وبإشراف حاكمها محمد السلوي وزير السلطان، الذي تكلف بتنفيذ قرار الطرد، أبحر علي باي على سفينة، يقودها الرئيس عمر، يوم ثالث عشر أكتوبر 1805، دون السماح لزوجته أم هاني، وهي حامل، بمرافقته؛ متوجها عن طريق طرابلس الغرب متوقفا في ليبيا، ثم تاهت السفينة في سواحل قبرص أثناء سيرها نحو الإسكندرية، قبل أن تصل في 12 ماي 1806، حيث سيلتقي بالكاتب الفرنسي شاتوبريان، صاحب كتاب الرحلة من باريس إلى القدس (9).

في القاهرة، شرع يتصل بالجالية المغربية، والتي قال أنها كانت كثيرة العدد وذات نفوذ ديني واقتصادي، كما التقى بالمولى سلامة -أخو السلطان - المطالب بعرش المغرب. بالإضافة إلى لقاءاته مع رموز عهد محمد علي منهم هذا الأخير وعمر مكرم والقبطان باشا التركي .

في دسمبر 1806 توجه إلى مكة، والتي وصلها يوم 11 يناير 1807 مؤديا شعائر الحج، وهو ما سيصفه بدقة متناهية في الفصول الخاصة بذلك في رحلته، قبل أن يعود إلى مصر في يونيو من نفس السنة ليملك خمسة عشر يوما فقط، ثم يشد الرحال - ولمدة ثلاثة أشهر - إلى فلسطين وسوريا ؛ وفي أكتوبر سيصل القسطنطينية وقد استشعر أن محمد علي اكتشف أمر تخفيه وأشاع خبره في مصر وفلسطين وسوريا ،فعبّر حدود الإمبراطورية العثمانية إلى فيينا (14 يناير 1808) ليصل إلى باريس في 17 ابريل 1808، فإسبانيا وهناك وجد أن جوزيف بونبارت، شقيق نابوليون، قد أصبح هو الملك (10)، بعد تنحي الملك الاسباني كارلوس الرابع .

انبهر نابليون بالمعلومات الدقيقة التي سمعها من علي باي عن المغرب فقرر إرسال القبطان انطوان بوريل (11) لاستكشاف إمكانية تحويل المغرب إلى مستعمرة فرنسية .

في مدريد سيصدر علي باي (يوليوز 1808) مطبوعا عن حياته وموجزا لرحلاته؛ وهي الفترة التي سيتحمل فيها عددا من المسؤوليات التي جلبت عليه متاعب وإشاعات، تتهمه حيناً بأنه يهودي ومجنون، وحيناً آخر بأنه مسلم وماسوني وزنديق. وفي قرطبة اتهم بسرقة أموال الأديرة ومحاكم التفتيش، كما كلفه جوزيف بونبارت بالتفاوض مع ثوار بلنسية وفشل، وآخر مشاكله اعتقاله بتهمة اختلاس المال العام قبل أن يفرجوا عنه.

خلال هذه السنوات الأربع، أدخل علي باي، وهو مسؤول بقرطبة، عدة إصلاحات على الزراعة والإدارة المحلية والتعليم وأنشأ أكاديمية العلوم والآداب والفنون الجميلة، وهي نفس الفترة التي دون فيها رحلته ونشرها بفرنسا.

عودة الراكد!

عاد علي باي إلى أحلامه القديمة مكاتبا، في أكتوبر 1815، وزير الخارجية الفرنسي يدعوّه إلى استعمار المغرب، مغريا إياه بثراء طبيعته وثرواته، مقترحا نفسه للقيام بهذه المهمة. مثلما شرع في طرق أبواب الكونت ديكاو وزير الشرطة ثم الكونت موليه وزير الحربية؛ وبطرق ما تم قبول مهمة علي باي الذي خرج من باريس في نهاية دسمبر 1817، تحت اسم مستعار معدل عن اسمه الأول، هو الحاج علي أبو عثمان، مُيمما نحو الحج ماراً بميلانو الإيطالية ثم القسطنطينية والبوسفور وصولاً إلى دمشق؛ وفي كل هذه المراحل كان دائم المراسلة مع الكونت مونييه والالتقاء بسفراء فرنسا للتموين ماديا.

في دمشق اشتدّ عليه المرض، مرض الدوسنتاريا (12)، ثم قامت قافلة الحجاج من دمشق ولم تتوقف إلا على حدود الجولان، لمدة عشرة أيام، وهو في حالة صحية منهكة. وأثناء سير القافلة نحو الزرقاء، على ضفاف نهرا المتفرع عن نهر الأردن، هناك أحس علي باي بدنو أجله فأحرق بعض أوراقه، ثم كلف

خادميه ياسين وإبراهيم بتسليم كل حاجاته المتبقية إلى قنصل فرنسا بدمشق فيما اختار الشيخ الجزار لتنفيذ وصيته .

أثناء سير القافلة من الزرقاء إلى البلقاء أمر بتوزيع أمواله التي بقيت معه بين عبد أسود مرافق له وبين فقراء مكة والمدينة.

وفي منتصف الليل من شهر غشت 1818 مات علي باي ودفن على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء، جنوب شرق الأردن ، رغم ما أشيع عنه من طرف مغاربة كانوا برفقته في قافلة الحج، بأنه مسيحي متخف وساحر.

وبعد وفاته شاعت عدة روايات رسمية بأنه مات مسموما من طرف عميل بريطاني، كما أن أسرته لم تعلم بخبر موته إلا في 17 مارس 1819، دون أن تصدق ما بلغها معتبرة ذلك خدعة من خططه الغربية، وقناعا لحياة أخرى.

الحنين إلى القناع القديم

حينما طرد الفرنسيون من إسبانيا في نهاية 1812، رافقهم علي باي مستقرا بفرنسا، وقد كانت رغبته حية في تحقيق مشاريعه، ومنها طبع رحلته التي كان قد حصل، من قبل، على أمر من نابليون بتحريرها وترجمتها وطبعها، لكن الظروف السياسية الجديدة دفعته لإعادة الطلب إلى لجنة العلماء الفرنسيين، هذه الأخيرة وافقت على النشر وتعهدت وزارة الداخلية باقتناء 250 نسخة من الرحلة وكان ذلك سنة 1814 حيث صدرت الطبعة الأولى بالفرنسية في ثلاثة أجزاء بعنوان "رحلات علي باي العباسي في إفريقيا وآسيا خلال أعوام 1803-1807"، مرفقة بأطلس وخمس خرائط وثلاثة وثمانين رسما والغريب أنه لم يستعمل اسمه الحقيقي زاعما أن كتابه هو ترجمة لرحلة كاتب عربي وأنه مجرد ناشر، وقد رمز لاسمه بحرف B دون أن يذكر في الكتاب نشاطاته السياسية.

وفي سنة 1816 ستصدر الطبعة الانجليزية في جزأين بعنوان مغاير: "رحلات علي باي إلى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية

وسوريا وتركيا بين أعوام (1803 - 1807)"، كما صدرت في نفس السنة الطبعة الألمانية في جزأين والطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء بمقدمة عن سيرة خيالية لعلي باي؛ وتأخرت الطبعة الإسبانية ببلنسية إلى سنة 1836، وهي الطبعة التي ستكشف عن الشخصية الحقيقية لعلي باي، أما الترجمة إلى اللغة الكطلانية فجاءت ابتداء من عام 1888.

أقنعة الكتابة

يبدو من أرشيف ادواردو طودا(13) ببرشلونة، أو من وثائق في أماكن أخرى بالمغرب ومصر ودمشق أو لدى أشخاص يحتفظون بما لديهم ، ومن خلال كتاب ومؤرخين وديبلوماسيين عاصروه، أن إرث علي باي ما زال يعدُّ بالكثير، فقد نُشر مؤخرا نص الدستور(14) الذي كتبه سنة 1817، سنة قبل وفاته حينما عاوده الحنين الراقد، في وجدانه الجموح، ليكون سلطانا على المغرب، وقد كتبَ هذا الدستور للمغرب باعتبار اتفاقه مع الفرنسيين الذين قبلوا انخراطه من جديد في مغامراته التنكيرية إلى الشرق، تمهيدا لخطة جديدة بالمغرب وفي ذاكرته لحظة ترحيله سنة 1805، التي كانت قاسية على نفسه.

إن حلم علي باي بالمغرب معقد بشكل غريب، عبّر عنه أولا في رحلة رفع اسمه الحقيقي وحقائق مهمته عنها، ثم في نص مسرحي روى فيه كيف كان يبحث عن دسترة المغرب، وأخيرا في نص قانوني، هو الأول من نوعه، يُنظم الملك والملكية من خلال 31 فصلا بعد الديباجة والخاتمة؛ وهو في كل هذا متأثر بالسياق العام الذي عاش فيه باسبانيا وفرنسا، وسحر شخصية نابوليون بونابارت وشهرة حملته على مصر سنة 1798، وحكم أخيه جوزيف عرش إسبانيا، ثم موضوع الدستور الذي كان محط نقاش وفير بأوروبا في تلك السنوات ونعتقد أن مسرحية "علي باي في المغرب" قد كُتبت، في نفس الفترة، خلال خريف 1815، وهي من خمسة فصول و53 مشهدا، تتخذ من علي باي شخصية محورية إلى جانب السلطان المولى سليمان والمولى عبد السلام

الأخ الأكبر للسلطان، وكان أعمى وصديقاً حميماً له؛ بالإضافة إلى شخصيات أخرى ذات نفوذ وتأثير، وكأن علي باي عاد إلى ما لم يستطع تفصيله في الفصول الثلاثة الأخيرة من رحلته إلى المغرب (الفصول 16 و 17 و 18) محاولاً تشخيص مجموعة من الأحداث والأفكار والتمثيلات الثقافية عن أناه والآخر، خصوصاً أنه ذو خيال واسع وعاشق للمسرح، فقد سبق له أن وضع مسودة لكتاب حول "يوميات المسارح" مثلما اعتبر حياته مسرحية يُمثل فيها دوره إلى جانب الآخرين.

تطرح المسرحية مجموعة من القضايا، منها الشخصية المغربية والنخبة وأشكال الحوار وتداول الأفكار وقضية الهوية ثم التحديث والصراع بين دسرة السلطة وبين الإنشاد إلى الواقع كما هو... كل ذلك في طابع درامي يصوغ التاريخي في بناء تخيلي منفتح على خطابات ثقافية سادت في المغرب وأوربا مع بدايات القرن التاسع عشر.

وقد استطاع علي باي توثيق سفره إلى المغرب خلال الفترة ما بين 1803 و 1805 مثلما سيدون باقي أسفاره عن السنتين الموالتين، في نص رحلي من ثمانية عشر فصلاً في شكل يوميات بتواريخ مضبوطة، معززا مشاهداته برسومات من إنجازاه، حيث كان التخيل والحلم وسيلة لجعل التذكر - من شخصية ضومنيكو بادياً العالم والرحالة الإسباني، إلى شخصية علي باي المسلم ابن الأمير العباسي الحلبي الباحث عن مكان آمن في بلد إسلامي - مرآة سحرية لتوثيق ما يبحث عنه. بل سيبدو أنه يحمل بداخله مشروعين كبيرين خلف تنكره، المشروع الرسمي الإسباني كما جرى الترتيب له مع الوزير الأول الإسباني مانويل كودوي والملك الإسباني، ثم لاحقاً مع فرنسا والمشروع الشخصي الذي كان في المرحلة الأولى جنينياً وحلماً بعيداً، لكنه في المرحلة الثانية، بفرنسا، سيصبح على بعد خطوة من حلمه في أن يصبح إمبراطوراً على المغرب بصفته العربية، وهو ما عبّر عنه في نص الدستور الذي كان آخر

ما قيّده، دون الحديث عن مراسلاته وملاحظاته المدونة. فأول جملة تعبر عن بداية ذوبان الشخصيتين في شخصية ثالثة (وهي أقصى درجات التخفي) حينما قال: "ولا يمكن أن يُقارن الإحساس الذي يغمر الإنسان وهو يخوض هذا العبور القصير سوى بالحلم، ذلك أن انتقاله في حيز زمني وجيز إلى عالم جديد كلية لا شبه له - ولو بعيد - بالعالم الذي خلف وراءه ، يجعله يجد نفسه في الحقيقة كأنه قد حُمِلَ إلى كوكب آخر" (16).

إنه يُجهد نفسه لجعل نصه وثيقة تنتمي إلى دائرة جنس رحلة عالم في الطبيعة والإنسان؛ ففي صفحة واحدة - على سبيل المثال - نجده يجمع عددا من الأفكار والتعليقات عن طبيعة الخيول بطنجة ثم ينتقل إلى عدد ساكنة طنجة "عشرة آلاف أكثرهم جنود وتجار .." (ص23)، ليستطرد مفصلا الحديث عن ملابسهم وأنواعها قبل الحديث عن النساء وهن "ملتحفات تماما دوما ،حتى إنه بصعوبة ما تُتَبَيَّنُ عينٌ في عُمق ثنية هائلة من حايكهين" (ص 23)، مثلما سيقف أيضا على ألبسة الأطفال.

وسيعمل علي باي على وصف كل شيء مرتبط بالدين والحياة اليومية والتجارة والفن والعلوم والطبيعة قبل أن يهتم بالحاكمين ونسبهم... كل ذلك بأسلوب سردي سلس ودقيق جعل الخلفية التسجيلية لا تبدو ضاغطة على التخيل. ويمكن تفكيك الكتابة عند علي باي في هذا النص من خلال أربع حلقات متفاعلة في النص:

- حلقة الأنا في تتكرها، فقد أعلن علي باي منذ البداية، في الطبقات الأولى إبان حياته، أنه مجرد ناشر لترجمة رحلة كاتب عربي، رامزا لنفسه بحرف "ب"، وبهذه الشخصية المتخفية يُقدم نفسه أميرا عربيا وعالما متشعبا بالعلوم من دول أوربية، مما جعله يُصبغ على ذاته بعض القداسة مصورا إعجاب الجميع به، من الرعية والسلطان وحاشيته، مقابل وجود أعداء له يقفون في وجهه مشاريعه.

ولم يَسَلِّمْ قناع الأنا من التزحزح عن مكانه فيطل منه ضومنيكو بادياً خصوصاً في الفصل التاسع من رحلته إلى المغرب (ص 95)، خلال حديثه عن الإسلامي والرسول والوحي والقرآن، فيبدو محايداً يكشف عن خلفية غير مُقتنعة تماماً.

- حلقة الآخر كما يُصوره، سواء من عموم الناس التي تُبجله لعلمه وجاهه وعطفه على الفقراء؛ أو السلطان وحاشيته الذين لا يستطيعون الاستغناء عنه وخصوصاً صديقه المولى عبد السلام (الأخ الأكبر للسلطان)، وسيُخصُّه علي باي بكثير من المحبة في الرحلة والمسرحية ويعتبره أقرب أصدقائه ومناصريه؛ وفي المقابل يوجد أعداؤه - كما سيسميهم في الرحلة والمسرحية- وعلى رأسهم الوزير الأول محمد السلاوي ومجموعته، وهم ممن كانوا يشكون في شخصيته واكتشفوا حقيقة علاقته بثوار الأطلس .

- حلقة المغامرة وحب البحث في الطبيعة والإنسان وتسجيل كل الملاحظات وإعادة بنائها.

- حلقة الأحكام المضمنة في تعليقاته المباشرة وغير المباشرة .

وتعتبر الفصول الثلاثة الأخيرة من رحلة علي باي إلى المغرب (16 و 17 و 18) محورا أساسيا يتضمن أهم الأفكار التي رسمها وسعيد كتابتها بطريقتين مختلفتين، تخيليا في المسرحية وتوثيقيا في نص الدستور.

يفتح الفصول الثلاثة بقوله: "خلال إقامتي بالسملالية، هاجمني مرض كاد يقودني إلى عتبة القبر. فخلال ثلاثة أشهر أُصِبتُ بخمس انتكاسات جسيمة وكابدتُ وقتاً مماثلاً طريح الفراش في حال من الوهن الفظيع، مما فوت علي وقتاً ثميناً لإجراء أبحاثي المختلفة الأنواع." (ص 183). إنه تمهيد بقدر ما يحمله من الواقعية فهو يرمز إلى تقابل هذه البداية مع النهاية التي ستأتي

بموت أحلام علي باي وكل مشروعه في المغرب بعدما تم "ترحيله" أو طرده من ميناء العرائش.

يقول: "...سألتُ عن الباشا فقالوا لي بعجرفة: "اركب من فضلك" حينئذٍ بدت لي واضحة سوء نية السلطان والباشا اللذين أمرا حتى اللحظة الأخيرة أن تُقام لي المراسيم الكبرى من قبل فيالق الجيش والشعب، بينما كانا يفكران في الضربة التي يُفترض أن تُخرجني وتُصيّني في الصميم، فشرعتُ أنظرُ باهتمام كبير إلى مصير أولائك الناس الذين يُكنون لي كل الحب، مثلما كنتُ أتأملُ مصيري الخاص.

أركبوني الزورق، وقلبي يتقطع بسبب صراخ بعض رفاق قافلتني المتألمين لهذا الفراق. نزلتُ إلى النهر، يفترسني الحنق واليأس، إلى حين الوصول إلى الحاجز حيثُ الضربات القوية للأمواج أصابتني بالدوار [...].

لقد غادرتُ سلطنة المغرب بمثل هذه الصيغة. وأنفادی إيراد انطباعاتي التي ليس هذا محلها، ولربما يكون موضعها مناسبة أخرى". (ص 230)

يُعيد علي باي تصوير هذه اللحظة التي آلمته وتركت في نفسه جرحا بليغا بصيغة فنية، في مسرحيته خصوصا في المشهد الأخير (الثاني عشر) وبعده يُسدل الستار وتنتهي المسرحية، وهو يصف كيف كان مع الثائرين عصمان وابن الجيلالي ضد السلطان ينساقون، وفجأة يدخل عليهم جنود السلطان يتقدمهم الأمير مولاي عبد المالك: رئيس الحرس وابن عم سليمان برفقة محمد السلاوي: الوزير الأول (الأعظم)، بعد اكتشاف مؤامرتهم ضد المولى سليمان وقدمهم للقبض عليه:

"[يدخل، فجأة، عبد المالك بمعية بعض الجنود ويرتَمون على علي باي وعصمان و ابن الجيلالي طارحين الاثنيين أرضا. تراه أم هاني وتصرخ:

— أم هاني: آه، يا أ الله!

— عبد المالك: أيها الخونة، هيا لتدفعوا ثمن جريمتكم.

(السلابي يحاصر النساء رفقة فوج آخر من الجند ويقول):

- السلابي: أم هاني، أنتِ أسيرتي.

(تكسر أم هاني الحاجز وتحاول الذهاب نحو علي باي الذي يسل سيفه

ليشق لنفسه طريقا نحوها هاتفا):

- علي باي: لِنَمْتُ يا أم هاني.

(يطرح الجنود علي باي أرضا وينتزعون سلاحه وتركض أم هاني إلى

شجيرة الورد وتمسك الخنجر هاتفة):

- أم هاني: آه أيها السلابي الغادر!

(تذهب ناحيته وترفع يدها هاتفة): فَلْتَمْتُ أيها الخبيث.

عند توجيهها الطعنة له ، يعترضها جنان الذي يتلقاها ويسقط قائلا:

- جنان: واحسرتي!

(أم هاني تقول للسلابي):

-أم هاني: استطعت أيها الشنيع إنقاذ هذه الحياة البغيضة لكنكم لن

تستطيعوا استعباد حياتي.

(تصيب نفسها وتسقط قائلة):

- أم هاني: الله أكبر.

- عبد المالك: أيتها المرأة الرائعة، إنك تستحقين حياة أفضل! (17).

ونفس الموقف يعيد علي باي قراءته بطريقة تسجيلية في نص الدستور الذي

كتبه، سواء في تقديمه أو خاتمته؛ ومما جاء في الديباجة:

- "أيها المؤمنون الأوفياء، إنكم تعرفون أن سلطانا رائعا سيظهر في أطراف

العالم الغربي. يا له من سلطان ! ويا له من رجل عجيب علي باي هذا !. أنتم

تعرفونه وتحبونه. إن علي باي الذي تَكُونُ على يد الله العظيم التي لا تقهر.

وبتأييد الله سوف يدمر طغيان واستبداد هؤلاء الشرفاء الذين يُخضعونكم

للعبودية تحت غطاء الدين، إرضاءً لأهوائهم و من دون احترام لأي قانون وينتزعون منكم ممتلكاتكم ويمتصون دمكم وأموالكم لملء كنوزهم، دون أن يقدموا شيئاً لبلدانهم، كل ذلك من أجل التلذذ بأهوائهم و لكي يجعلوا منكم ضحايا بؤساء". (18).

قبل أن يعود في خاتمة الدستور ليصرح بشكل واضح - بضمير الغائب- ما وقع له منذ قدومه إلى المغرب، وهي قراءة جديدة يقدمها من منظوره انتقاما لنفسيته الجريحة:

- " جاء إلى المغرب في سنة 1218 هجرية بدون أية أطماع رغم سيطرته على شخصية مولاي سليمان، وكان بإمكانه أن يستولي على العرش، ولكنه رفض ذلك نظرا لنبله وعدم اكترائه بالموضوع، واقترح على مولاي سليمان أن يقوم بصياغة دستور للإمبراطورية بنفسه من أجل مصلحة عائلته ومصلحة شعوب الغرب. وتعرفون أن مولاي عبد السلام العظيم وكل الرجال الطيبين قد تبنوه وتمنوا أن يتم وضع دستور، لكن مولاي سليمان والوزير السلاوي الخائن كانا يعارضان ذلك .

لم يرد علي باي إزاحة سليمان عن العرش مع أنه كان يمكنه القيام بذلك وغادر المغرب لأداء واجبه الديني الذي هو الحج إلى بيت الله الحرام. أنتم تعرفون أنه خلال سفر علي باي وعند مروره بفاس أعلن العلماء أن مولاي سليمان قد ارتكب ذنبا عندما لم يقبل بدستور علي باي. وتعرفون الرسالة الدامية التي أرسلها له مولاي سليمان في هذا الشأن. وتعرفون أنه أعطى أوامره لإلقاء القبض على علي باي بوجدة عندما كان ذاهبا إلى الشرق. فأخذه إلى العرائش حيث تم إركابه سفينة وتجريده من نسائه وخدمه. وتعرفون أن علي باي لم ينتقم قط منه حيث التقى مولاي سلامة، أخ سليمان بمصر، وأغدق عليه بالهدايا والأموال له ولعائلته". (19).

إن حدثًا واحدًا وردَّ بصيغ متعددة بين التخييل والتسجيل، في ثلاثة نصوص كُتبت ما بين 1812 و1817 بالترتيب التالي: الرحلة أولاً ثم المسرحية ثانياً وأخيراً الدستور. وقد نمت وتبلورت فكرة حدث سياسي ضمن هذا السياق ولعل الأصل كان في مرحلة سابقة، مرحلة اللاكتابة ما بين سنوات 1801 - 1803 و1805 والتي عاش فيها التجربة وحلمَ بتنفيذ الأفكار؛ ثم ستأتي المرحلة الثانية، مرحلة الكتابة، والتي سييُوح فيها، ودائماً ضمن الشخصية التنكزية، بكل رغباته، كأنها خارطة طريق نهائية تُفسر ما كان وتؤكد ما سيكون.

ملحق

دستور للمملكة المغربية

قام بصياغته

ضومينكو باديا (علي باي العباسي) (20)

إلى الشعوب الغربية

لقد أرسل إلينا رب السموات والأرض السلطان علي باي العباسي. تعرفوا عليه باسمه وبرحمته الله العلي ، فهو يعلن أن سنة 1234 (هجرية) التي نحن فيها، سنة مذهلة رائعة و هي أوان وزمن انبعاث الشعوب الإسلامية. كما أن هذا الرقم، رقم غامض و لن يمكننا أن نراه إلا بعد مرور 1111 سنة. فكروا في الأمر إن كنتم حذرين.

أيها المؤمنون الأوفياء، إنكم تعرفون أن سلطانا رائعا سيظهر في أطراف العالم الغربي. يا له من سلطان ! ويا له من رجل عجيب علي باي هذا !. أنتم تعرفونه وتحبونه. إن علي باي الذي تَكُونُ على يد الله العظيم التي لا تقهر. و بتأييد الله سوف يدمر طغيان واستبداد هؤلاء الشرفاء الذين يُخضعونكم للعبودية تحت غطاء الدين، إرضاءً لأهوائهم و من دون احترام لأي قانون، وينتزعون منكم ممتلكاتكم ويمتصون دمكم وأموالكم لملء كنوزهم دون أن يقدموا شيئا لبلدانهم، كل ذلك من أجل التلذذ بأهوائهم و لكي يجعلوا منكم ضحايا بؤساء

أيتها الشعوب المؤمنة، لقد انتهى الاستبداد، ولقد جعلكم الله تعالى أحرارا. إن علي باي يقدم لكم أساس الدستور الذي يجب أن يحكمكم. إنه لا يريد أن يصبح سلطانا عليكم لأجل مصلحته الشخصية؛ لأنه يتوفر على الكثير من الأموال والممتلكات تجعله سعيدا بدونكم. لقد رأيتم وتعرفون ذلك جيدا. سيكون علي باي سلطانا لكم من أجل مصلحتكم ومن أجل إسعادكم. لن يكون هو بل القوانين هي التي ستحكمكم. كما أن هذه القوانين ستحظى بموافقتكم وبموافقة كباركم وعلمائكم و تجاركم، كلهم مجتمعون في مجلس. وسيكون السلطان علي باي أول من سيؤدي القسم للخضوع لهذه القوانين. أما أنتم فستؤدون قسم الطاعة لأوامره التي يستمدّها من القانون.

وستكون قواعد دستوركم كالتالي :

1- تشهد الشعوب الإسلامية بأنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .

2- إن الله قد جعل الإنسان حرا وليس عبدا، وانه لن يفقد حريته المدنية إلا في حالة جنحة أو حرب. يمكن أن يعتقل إلا بأمر من قاض يصدر حكمه 24 ساعة بعد استئطاق المعتقل
3- إن القانون فوق الجميع. وستكون هناك محاكم سفلى وعليا تدير العدل باستقلال تام عن السلطان.

4- إن السلطان صورة الله ونبية (صلى الله عليه وسلم) ستبقى له الصلاحية لكي يرحم ويصفح و يعفو عن الجانحين طالما أن هناك أسبابا معقولة تدعو لذلك.

5 -سيعين السلطان القضاة، الذين سيكونون دائمين. لكن السلطان سيعمل على مراقبة سيرتهم كما سيعاقب أو سيغير الفاسدين والمتراخين منهم وسيحاكمهم، وسيتم نشر الأحكام التي صدرت بخصوصهم. وسيكلف بهذه الصلاحيات وزير العدل.

6-وسيتلقى القضاة راتبا محددًا يؤدي من خزينة الإمبراطورية. ولن يتلقون أي شيء من طرف المدعين، سواء بصفة رسمية أو غير رسمية، مهما كانت تلك القضايا، مدنية أو جنائية، وسيحدد قانون مؤقت مكونات المحاكم الانتقالية حتى يتم تحديدها نهائيا بواسطة مدونة الإمبراطورية .

7-تشهد الشعوب العربية أن الملكية أكثر الحقوق قدسية للإنسان. ليس للسلطان أو لأعوانه أو للمحاكم أو لأي سلطة مدنية كانت أو عسكرية الحق في حرمان السكان من ممتلكاتهم أو أثاثهم أو عقارهم أو محاصيلهم أو أكريتهم أو أرباحهم ماعدا في الحالات الخاصة التي سوف يحددها القانون. إن التجريد من الممتلكات أمر قد ولى وان ممتلكات الأشخاص تعود لأبنائهم بعد الممات، لأن معاقبة الأبرياء بسبب أخطاء الآباء سيعتبر ظلما. إن لكل شخص حرية التصرف في ممتلكاته والاستمتاع بها كما يشاء، دون أن يكون لقاض أو لوكيل السلطان الحق في مساءلته حول تصرفه في تلك الممتلكات.

وتعتبر كل تجارة حرة، سواء داخل البلد أو مع الدول الأجنبية، عن طريق أداء رسوم لخزينة الإمبراطورية، إلا في حالة الحرب أو حالات أخرى سوف يحددها القانون.

8-إن شعوب الغرب (الغرب الإسلامي) تعترف على لسان سلطانها الباديشاه بالأمير الشرعي الورع والشريف والدكتور والحكيم والحاج علي باي العباسي، خادم بيت الله. وهو بذلك يجرد أي شخص آخر يدعي أن له الحق في العرش من هذا الأحق. وبناء على ذلك سيتم اعتبار هذا الأخير كمخل بالنظام و ستم معاقبته.

9-وكمؤسس للإمبراطورية سيختار السلطان علي باي، بارك الله في عمره، من بين أبنائه من سيخلفه على العرش بعد وفاته. لكن بعد وفاة هذا الخليفة سيصبح عرش الغرب الإسلامي

متوارثا مدى الحياة بين أبناء وسلالة هذا الخليفة بناء على الابن البكر. وسوف لن تكون هناك حروب أهلية من أجل العرش، ولن تسيل دماء المسلمين بسبب طموح أولئك الشرفاء.

10- سيتم تكوين مجلس للشيوخ من اثني عشر من كبار الملاكين، ستة دكاترة وستة أمراء وستة تجار. وسيسمى هؤلاء الشيوخ "كبار الغرب"، وسيتم تمتيعهم بمعاملة رفيعة. كما سيتم تحديد تعويضاتهم بواسطة نظام لاحق. كما ستخصص لهم أراض وإقامات للسكن تمكنهم من الحفاظ على مركزهم المتميز الذي سيكون متوارثا بالنسبة للملاكين الاثنا عشر، ومدى الحياة فقط بالنسبة للآخرين. وسيكون قاضي فاس وقاضي مراكش عضوين بقوة القانون في مجلس الشيوخ، داخل فئة الدكاترة. كما أنه لا يمكن لأحد أفراد عائلة السلطان من الدرجة الأولى و الثانية أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ، ولن يمكنه أن يترشح للمجلس حتى في حالة سماح السلطان بذلك.

وسيعين السلطان كل سنة رئيسا وسكرتيرين اثنين للمجلس، وسيكون مقدم مولاي إدريس ومقدم سيدي بلعباس أعضاء في المجلس داخل فئة الملاكين الكبار.

11- وسيقوم علي باي برفع عدد أعضاء المجلس إن كان ذلك ضروريا. لكن هذه الصلاحية سوف تنتهي بالنسبة لورثة العرش الذين لا يمكنهم تغيير عدد الأعضاء الذين تم تحديد عددهم من طرف السلطان ومؤسس الإمبراطورية .

12- سوف تكون لشخصية هؤلاء الأعضاء حرمة. ويمكن استدعاؤهم للمثول أمام العمال والمحاكم مع ما يتطلبه ذلك من احترام لمكانتهم وفقا للصفة التي يحددها القانون. لكنه لا يمكن إلقاء القبض عليهم إلا بأمر موقّع من طرف السلطان أو رئيس مجلس الشيوخ مع سبعة أعضاء منه. إلا في حالة خيانة أو تمرد، وسيفقدون في هذه الحالة كل حقوقهم وسيتم تطبيق القوانين العامة عليهم. وماعدا هذه الحالات، فلا يمكن محاكمة عضو من أعضاء مجلس الشيوخ إلا من طرف مجلس الشيوخ نفسه.

13- إن شعوب المغرب في فاس ومكناس و تطوان وطنجة والقصر الكبير وتازة وسلا والرباط وأزمور وتارودانت والقبائل الجبلية الثلاث الرئيسية والقبائل الثلاث المجتمعة في صحراء أنجاد والقبائل الثلاث لدرعة، سيعينون برلمانيين في حدود ثلاثين فردا .

14- وسيجتمع هؤلاء البرلمانيون الثلاثون في المكان والزمان الذي سيحدده السلطان. وسيكونون جمعية البرلمانيين التي ستعقد اجتماعا على مسافة لا تقرب بأقل من نصف ميل ولا تبعد بأكثر من ميلين من مجلس الشيوخ. وسيعين السلطان رئيسا وثلاثة كتاب وثلاثة

خطباء سيقومون بتسيير المناقشات داخل الجمعية ويمكنهم الإدلاء برأيهم، ولكن لا يمكنهم التصويت.

15- وقبل الذهاب للجمعية، سيجتمع البرلمانيون معلومات عن شيخ البلاد وعن القاضي وعن الشخصيات الذكية الأخرى وعما تحتاجه البلاد من ضروريات ومتطلبات وأيضاً عما يمكن فعله من خير لهذه البلاد. وعندما يكون البرلمانيون مجتمعين، سيعرض كل واحد منهم أفكاره ومطالب منطقته. وستقرر الجمعية بأغلبية الأصوات المواضيع التي سوف تقترح لمصلحة البلاد، وستصوغ دفتر مقترحات يُقدم للسلطان وللمجلس الشيوخ في نسخة ثانية .

16- وسيقوم السلطان في مجلسه الاستشاري بصياغة دفتر مقترحاته ويبحث به إلى مجلس الشيوخ و مجلس النواب، وستناقش كل هيئة منه تلك المقترحات.

17- بعد ذلك سيجتمع خطباء الامبراطورية ومجلس النواب في مجلس الشيوخ، وسيناقشون موضوعاً من المواضيع حيث سيقوم خطيب من مجلس الشيوخ بتقديم الموضوع. وبعد مناقشته سيقدر مجلس الشيوخ التصويت بنعم أو بلا على المشروع.

18- وعند تبني المشروع من طرف مجلس الشيوخ، سيكون بإمكان السلطان الموافقة عليه ونشره. ابتداء من هذه اللحظة سيحظى بقوة القانون. لكن إذا رأى السلطان سبباً واضحاً لرفضه سيكون من الضروري تقديم المشروع من جديد أمام المجلسين لمناقشته خلال الدورة المقبلة.

19- لا يمكن للمجلسين بأن يجتمعا إلا بطلب من السلطان و لا تنتهي دورتهما إلا بأمر منه. وسيعتبر أي اجتماع لا تتوفر فيه هذه المواصفات بمثابة انقلاب. وسيستفيد النواب خلال عملهم داخل اللجان من راتب تؤديه لهم المدينة أو القبيلة التي ترسلهم. وسيحدد قانون لاحق تلك الرواتب وطريقة استخلاصها وطريقة انتخاب النواب ومدة مهامهم .

20- لا يمكن للمجلسين التوفر على مراسلة، كما لا يمكنهما إعطاء أمر من الأوامر لعامل خارج منطقة نفوذهما. وكل عمل في الاتجاه المعاكس سوف يقابل على أنه تمرد. إن دور مجلس النواب هو اقتراح و مناقشة مشاريع القوانين. كما أن الهدف من مجلس الشيوخ هو مناقشة قبول أو رفض مشاريع الإمبراطورية والنواب، وليس القيام بمقترحات أو إعطاء أوامر. ويملك السلطان وحده صلاحية الاقتراح و العقاب والنشر وإعطاء الأوامر لتطبيق القوانين.

21- وسيسمي السلطان كبار الشخصيات وكبار الضباط الذين يراهم أهلاً لتمثيل الصورة المشرقة للإمبراطورية ولتعزير مكانتها. و سيحدد إقامات السكن والأجور والتعويضات التي سيستفيدون منها، و سيمنح المجلسين قوة القانون لهذه المقتضيات .

22- سيقدر السلطان عدد الجيوش التي يراها ملائمة للأمن الداخلي للدولة و كذلك لكي يجعل البلدان الأجنبية تحترم إمبراطورية الغرب.

23- وستتوصل هذه الجيوش مثلها مثل الأمراء والباشوات والحكام وكل العاملين العسكريين والمدنيين بأجورهم من خزانة الإمبراطورية. بدون أن يكون بإمكانهم أخذ ولو فلس واحد من عند السكان، كيفما كانت طبقتهم أو بلدتهم أو دينهم. وكل من خالف هذا الفصل سيعامل من طرف السلطان بنفس الحزم الشديد. وسيدبر وزير الحرب الجيوش، فيما سيدبر الأمراء و الحكام العسكريون الساحات و القلاع.

24- ولتطعيم خزانة الإمبراطورية، سيؤدي السكان سنوياً عُشراً محاصيلهم أو أكريتهم أو أرباحهم. و في حالة ما إذا كان ذلك غير كاف لتغطية نفقات الإمبراطوري، فسيقدم السلطان مقترحات وسوف تتفق المجالس على الصيغ الضرورية لتغطية تلك النفقات. لكن لن يفرض السلطان أية مساهمة معينة إلا في حالة تمرد كعقاب للمتمردين أو في حالة خاصة جداً أو استثنائية وهي حالة الحرب. وسيقدر المجلسان أيضاً ما يتعلق بحقوق الجمارك أو ما شابه ذلك. ولن تؤدي الشعوب أي شيء دون سبب واضح معترف به ومصادق عليه من طرف المجالس التي تمثلها. وستخصص المداخل لأداء أجور ونفقات الإمبراطورية، وبالتالي ستعود إلى الشعب نفسه. لا يريد السلطان علي باي وورثته، الذين سوف يأتون من بعده جمع الأموال وكنزها كما كان يفعل السلاطين السابقون، حيث كانوا يساهمون في تقفير الأمة. إن كنز علي باي و ورثته هو سعادة شعوبهم.

25- لاستخلاص ضريبة العشر و المساهمات الأخرى، سيعين لهذا الغرض موظفين ينجزون عملهم هذا باستقلال تام عن الباشوات أو الحكام الذين ليست لهم أي علاقة بهذه النقطة، إلا في حالة ما تمت الاستغاثة بهم من طرف الموظفين، لمساعدتهم على استخلاص الضرائب ممن يرفضون الأداء. وسيكون لهؤلاء الموظفين رؤساء تابعون كلهم لوزير المالية الذي له صلاحية متابعتهم في حالة شكاية قانونية يقدمها له السكان ضدهم، ولا يجب على هؤلاء السكان أن يؤديوا أي شيء خارج ما يحدده القانون .

26- وسيتم إيداع كل الأموال في خزانة الإمبراطورية التي هي تحت سلطة الدفتردار أو الخزينة العامة. ولن تؤدي هذه المؤسسة شيئاً بدون أمر من الوزراء. وسيقوم بصياغة تلك

الأوامر السلطان وفقا القانون المعمول به والمعروف من طرف الدفتردار. وكل أداء يؤدي من الدفتردار أو كل أمر أعطاه وزيره خارج القانون أو ضد ما أمر به السلطان، سيعاقب عنه بشدة.

27- وستحدد أجور أئمة ومستخدمي المساجد بناء على ميزانيتهم. وإذا لم يتوفر مسجد من المساجد على إمكانيات كافية، سيتم إمداده انطلاقا من ميزانيات المساجد الأخرى أو من خزينة الإمبراطورية، وسيتكلف وزير العدل بهذه الأمور .

28- وسيكون هناك وزير للداخلية يسهر على بناء الطرق والقناطر والمستشفيات والفنادق وقنوات الري والنافورات والمدارس ومؤسسات العلوم والفنون والإدارات العمومية والمصانع ومؤسسات أخرى من أجل سعادة الناس. وستتوفر كل مدينة وكل قبيلة على شيخ البلد أو حاكم مدني تابع لباشا الإقليم، وسيكون هذا الأخير تابعا لوزير الداخلية. ولن يتدخل باشا الإقليم في أمور الجيش، ولن يتدخل كذلك أمير الجيش في أمور السكان غير العسكريين إلا في حالة حرب أو تمرد حيث سيكون الأمير هو من يدير العمليات بأمر من السلطان مصحوبا بفرقه لإغاثة باشا الإقليم في حالة ما إذا طلب منه هذا الأخير ذلك.

28-مكرر: سيكون هناك وزير للخارجية يتابع مراسلات الإمبراطورية مع باقي السلاطين. وسيعين مساعدين له من اختصاصهم إخباره حول البلدان الأجنبية وحول نوايا الملوك الآخرين وذلك من أجل تفادي الحروب أو للاستعداد لها مسبقا إذا كانت تلك الحروب حتمية.

و سيعمل كذلك، هذا الوزير، على أن يكون المغاربة ينعمون بالتقدير والاحترام في بلدان المسيحيين وفي جميع البلدان الأجنبية. وسيكون السفراء والقناصلة الأجانب في الامبراطورية، من أي بلد أو ديانة، تحت سلطة وزير الخارجية .

29- سيكون للسلطان ديوان أو مجلس يتكون من الوزراء ومن عدد من الأشخاص الذي يراه مناسبا. وستتوجه الوزراء أو المستشارون إلى مجلس الشيوخ أو النواب كلما طلب منهم ذلك السلطان وذلك لمناقشة مشاريع القوانين أو للجواب عن التحفظات التي قد تنتج. لكن، لن يكون لهم الحق في التصويت داخل المجلسين.

30- وستتوفر السلطان على جيش من البحرية لحماية التجارة والموانئ ولجعل العلم المغربي يحظى بالاحترام. وسيكون هذا الجيش حاليا تحت سلطة وزير الحرب. لكن إذا كان هناك أمر مهم، فسيتم تعيين وزير للبحرية ليتكلف بذلك.

31-وسيكون العلم المغربي متكونا من سطرين أقيين أحمرين ومن سطر اخضر في الوسط ونجمة بيضاء تتوسطه.

شعوب الغرب الإسلامي:

هذا هو الدستور الذي يجب أن يحكمكم وهذا هو علي باي لمساندته بسيفه القوي وبمساعدة الله، رب محمد. إنكم تعرفون كلكم علي باي، وتعرفون أن قوله صلب مثل الحجر. إنكم تعرفون إن علي باي بعد زيارته لعدد من الأمم وبعد أن استفاد مما هو جيد ورمى ما هو سيئ من علوم الإنسان، جاء إلى الغرب في سنة 1218 بدون أية أطماع رغم سيطرته على شخصية مولاي سليمان، وكان بإمكانه أن يستولي على العرش، ولكنه رفض ذلك نظرا لنبله وعدم اكترائه بالموضوع، واقترح على مولاي سليمان أن يقوم بصياغة دستور للإمبراطورية بنفسه من أجل مصلحة عائلته ومصلحة شعوب الغرب. وتعرفون أن مولاي عبد السلام العظيم وكل الرجال الطيبين قد تبناه وتمنوا أن يتم وضع دستور، لكن مولاي سليمان والوزير السلاوي الخائن كانا يعارضان ذلك.

لم يرد علي باي إزاحة سليمان عن العرش مع أنه كان يمكنه القيام بذلك، وغادر المغرب لأداء واجبه الديني الذي هو الحج إلى بيت الله الحرام. أنتم تعرفون أنه خلال سفر علي باي وعند مروره بفاس أعلن العلماء أن مولاي سليمان قد ارتكب ذنبا عندما لم يقبل بدستور علي باي. وتعرفون الرسالة الدامية التي أرسلها له مولاي سليمان في هذا الشأن. وتعرفون أنه أعطى أوامره لإلقاء القبض على علي باي بوجدة عندما كان ذاهبا إلى الشرق. فأخذه إلى العرائش حيث تم إركابه سفينة وتجريده من نسائه وخدمه. وتعرفون أن علي باي لم ينتقم قط منه حيث التقى مولاي سلامة، أخ سليمان بمصر، وأغدق عليه بالهدايا والأموال له ولعائلته

لقد زار علي باي بيت الله الحرام والصفاء والمروة وعرفات وذهب بعد ذلك إلى الشرق. وعندما كان يزور بلدانا جديدة لإتمام معرفته وتكوينه أخذته يد الله العظيم إلى الغرب لكسر قيود العبودية التي ترضحون تحتها. لقد مرت أربع عشرة سنة على ارتكاب مولاي سليمان الخطأ الجسيم عندما رفض الدستور واستولى على نساء وعبيد علي باي. افتحوا أعينكم هاهي الأربع عشرة سنة من ملك مولاي سليمان التي تم الإعلان عنها والتي يجب عدها منذ اللحظة التي ارتكب فيها تلك الجريمة الكبيرة. لقد عاقبت يد الله العظيم سليمان حيث أزالته عن العرش، ووضعت مكانه علي باي كسلطان على عرش الغرب. وسيكون علي باي وأبناؤه وحفدته ملوكا عليكم فقط من أجل مصلحتكم ومصلحة أبنائكم

وأبناء أبنائكم. احمدا العناية الإلهية ورب محمد، وسارعوا بإيمان وصديق إلى السلطان الرائع الذي بعثه إليكم. لا تقبلوا بسليمان بما أنه رفض قبول الدستور الذي أرسله إياه الله عن طريق علي باي من أجل مصلحته ومصلحة عائلته ومصلحة الغرب. وأعلنوا كلكم بإجماع في مساجدكم والمدن والحقول: "ليبارك الله حياة سيدنا علي باي العباسي سلطان فاس وسلطان المغرب الذي بعث إلينا به الله في سنة 1234 الهجرية ، والتي هاجر فيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"

هوامش:

(1)- ولد ضومنيكو باديا ليليش في 1 أبريل 1767 ببرشلونة، وهو رحالة ومغامر أسباني. توفي بدمشق سنة 1818. وقد درس، مثل كل مجاليه، عدة علوم كانت منتشرة وأساسية مرتبطة بأفق المرحلة الثقافية والسياسية بأوروبا. كما تعلم اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ومبادئ في العربية .

(2)- هناك أيضا من شكك في سلامة عقله

<http://www.egiptologia.com/grandes-egiptologos/3250-domingo-francisco-badia-y-leblich-ali-bey-el-abasi.html>

PATRICIA ALMARCEGUI, Ali Bey y los viajeros europeos a Oriente,
Barcelona, Ediciones Bellaterra, 2007

Almarcegui, Patricia, Ali Bey y los viajeros europeos a Oriente, Barcelone,
Bellaterra, 2007, 312 p.

(3)- سادت ثقافة التكرار في اللباس العربي مع عشرات من الرحالة والمغامرين الأوربيين قبل علي باي وبعده. وذلك في سياق معرفة أنق بعوالم الشرق العربي والغرب الإسلامي .

(4)- جوزيف ايكنان سيكو Joseph Aignan Sigaud (1730- 1810) عالم فرنسي في الفيزياء وأحد الرواد الأوائل في الفيزياء التجريبية ؛ له عدد من المؤلفات في تخصصه وفي الرياضيات كما له مؤلف حول "معجم عجائب الطبيعة " من ثلاثة مجلدات كتبه ما بين 1781 و 1801.

(5) - مانويل كدوي Manuel Godoy (ولد باسبانيا 1767 وتوفي بباريس 4 أكتوبر 1851) رئيس الحكومة الإسبانية لفترتين في ظروف صعبة ؛وقد عاش حياة ملئية بالأسرار والمغامرات والتقلبات. كتب مذكراته التي سينشرها سنة 1836 وفيها أشار إلى علي باي ومهمته .

- Godoy, Manuel de. Memoirs of Don Manuel de Godoy, Prince of the Peace, Duke del Alcudia, Count d'Everamonte, &c. London: R. Bentley, 1836.

للمزيد من الإطلاع على حياته ، انظر :

<http://www.britannica.com/EBchecked/topic/236890/Manuel-de-Godoy>
(6)- سيمون دي روخاس: (1777- 1827) عالم نباتات اسباني يجيد اللغة العربية ، وله أيضا معارف متعمقة في الكيمياء واللاهوت وفقه اللغة العبرية. عمل طويلا في الحدائق النباتية وفي تصنيف النباتات والحيوانات .

انظر للمزيد :

http://en.wikipedia.org/wiki/Sim%C3%B3n_de_Roxas_Clemente_y_Rubio
http://www.uv.es/metode/numero34/5_34.html

وقد نشرت جريدة مدريد خبر سفر روخاس وضومنيكو باديا ، رغم سرية المهمة ، دون أن ينتبه إليه أحد في الضفة الأخرى.

(7)- السلطان المغربي المولى سليمان (1792-1822) وقد اشتهر بالعدل والتقوى وبقطع المواسم التي اعتبرها كعبة المبتدعة والفاسيقين ، وأمر بخطبته الشهيرة على سائر المنابر إرشادا للناس لاتباع السنن ومُجانبة البدع.

ومما يقوله في نهاية خطبته : "وهانحن عباد الله أرشدناكم وأنزناكم وحذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم ، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم ، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبن، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ".

(8) - انظر: علي باي: رحلات عبر المغرب [ترجمة: مزوار الإدريسي] المغرب. منشورات ليطوغراف. طنجة ط 1- 2008. (الفصل السادس ابتداء من ص 51) .

(9) - فرانسوا - رينيه دي شاتوبريان (1768 - 1847) كاتب فرنسي ورحالة زار أمريكا سنة 1791 راصدا حياة الهنود الحمر المتصالحة مع الطبيعة .وفي ما بين صيف 1806 وصيف 1807 سيرحل إلى الشرق ، وهي الرحلة التي سيدونها في كتاب صدر أول مرة سنة 1811 تحت عنوان : " رحلة من باريس إلى القدس، ومن القدس إلى باريس مرورا باليونان، والعودة من مصر وبلاد البرابرة واسبانيا"

وقد رافقه في رحلته هذه خادمه جوليان، والذي كان يدون مشاهداته يوماً بيوم ليصدر بذلك كتابه الخاص سنة 1901، تحت اسم "جوليان خادم شاتوبريان" و بنفس عنوان رحلة شاتوبريان .

انظر : شاتوبريان : الطريق من باريس إلى القدس . سوريا . دار المدى . دمشق . 2008 . ترجمة مي عبد الكريم محمود.

(10) - انطوان بوريل Antoine Burrel (1773-1850) ابن مزارع فرنسي، خريج مدرسة علوم التقنيات. التحق بالخدمة سنة 1793، وعمل في عدد من المهمات بمصر واسبانيا، قبل أن يتم إرساله، تمهيدا لغزو المغرب، برسالة من نابليون إلى السلطان المولى سليمان، حيث وصل طنجة يوم 27 ماي 1808 وقضى ثلاثة أشهر فيها قبل أن يلتحق بمكناس، وخلال هذه الفترة استطاع جمع عدد من المعلومات عن تركيبة ساكنة طنجة وتنظيم الجيش وطبيعة الأرض.

انظر :

La mission du capitaine Burrel au Maroc en 1808. document publié par Jacques Caillé. Paris. Arts et métiers graphiques. 1953
وانظر أيضا : boubker el kouche : regarde , voici Tanger .france. l'harmattan .1997 (232p).

(11)- مرض الدوسنتاريا أو الزحار عبارة عن التهاب الأمعاء نتيجة الإصابة بأحد الجراثيم أو الطفيليات مما يؤدي إلى حدوث إسهال مصحوب بارتفاع درجة الحرارة والقيء.

(12)- ادواردو طودا (1855-1941) دبلوماسي إسباني، شغل مسؤولا في قنصليات بالشرق وفي 1884 عُين قنصلا عاما في القاهرة حيث شارك في اكتشاف قبر سندجم كما ذهب في مهمة اركيولوجية بأعالي مصر، وكل ذلك بإشراف ماسبيرو.

غادر طودا مصر في مارس 1886 محملا بعدد من الآثار النفيسة، ونشر بعد رجوعه ثلاث مونوغرافيات كما نشر مؤلفه *à travers del égypte*.

وكان لطودا فضل كبير في تجميع العديد من الوثائق حول علي باي، خلال تواجده قنصلا لاسبانيا في مصر، أو ما عثر عليه في اسبانيا وانجلترا وفرنسا أو مغامراته بشراء جزء من أرشيف علي باي الذي كان بحوزة حفيده اميل دي سال بباريس سنة 1889. وقد سلم طودا كل هذا الأرشيف لاحقا إلى مكتبة المعهد البلدي ببرشلونة، وضمنه نص مسودة المسرحية.

(13)- دستور للمملكة المغربية الذي قام بصياغته علي باي حوالي سنة 1817، بعد عشر سنوات عن خروجه من المغرب.

وتوجد نسخة منه بأرشيف برشلونة ضمن ما تركه طودا:

(AHCB, col.toda,Ms B ,162-II)

(14) - نُشر نص الدستور باللغة الاسبانية أول مرة سنة 2004 من طرف ميرسي فيلادريش في مجلة العالم الاسلامي والمتوسطي (113-114، صفحات 345-383 بعنوان دستور الى شعوب الغرب : مقترح inedite للرحالة " علي باي العباسي للمغرب .

مراجعته بأرشيف برشلونة:

dans l'arxiu histoire de la ciutat de barcelona (AHCB, col.toda,Ms B ,162-II)

كما صدرت بالمغرب نسخة في كُتيب، وهو مرجعنا الذي عُدنا اليه، منشورات خبار بلادنا - طنجة 2010 ويتضمن النسخة الاسبانية من تقديم بيرنابي لوبيز غارسيا والنص الفرنسي من ترجمة شيشيليا فيرنانديز سوزور.

(15) انظر تقديم الطبعة الإسبانية :

ALI BEY EN MARRUECOS Tragedia . Edition, estudio y notas de celsa c. garcia valdes y michael mcgaha. Espana. coll anejos de rilce 1999.

(16)- علي باي: رحلات عبر المغرب [ترجمة: مزوار الإدريسي] المغرب. منشورات ليطوغراف. طنجة ط1- 2008. ص 9 .

(17) - الفقرة النهائية من المشهد الأخير من مسرحية علي باي: علي باي في المغرب (تأليف ضومنيكو باديا /علي باي).

(18)و(19) - نص الدستور الذي كتبه علي باي على الشعب المغربي. ملحق بكتاب مسرحية "علي باي في المغرب". مرجع سابق .

(20)- ترجم هذا النص عن الإسبانية د/ عبد المنعم بونو (أستاذ الأدب الإسباني ، جامعة محمد الخامس الرباط).